الفصل الحادي عشر

الأسماك كانت تحتضر. كان فلاح قد زرع سمكاً ذهبياً في بحرة الباحة الخلفية بالمكتب، إلا أن فراخ السمك ما لبثت، بعد أسبوع استثنائي البرودة أواخر شهر كانون الأول/ديسمبر، أن مرضت وصارت تجرجر أجسادها بكسل في الماء البارد، الراكد. تعين على فلاح أن ينقلها إلى مناخ أكثر دفئاً وإلا فسوف تموت. سألني عما إذا كنت موافقة على إدخالها إلى الغرفة فوافقت، ثم اشترى حوضاً زجاجياً وضعه في غرفتي وملأه ماء فاتراً، حجارة، ودولاباً يغزل مشكالاً ذا ألوان مدوِّخة. لم يكن فلاح مقتنعاً بأن إدخال الأسماك إلى الداخل كان سينقذها، غير أنه لم يقطع الأمل.

قال: "مكّنيها من رؤية وجهك! لاطفيها!"

عظيم، قلت لنفسي. **مزيد من الموت. تماماً ما نحن بحاجة إليه للترحيب بعام** 2005.

كارل وأنا احتفلنا برأس السنة في المكتب وحدنا، عابثين بعشاء لم يثر اهتمام أي منا في الحقيقة. كان لدينا طباخ جديد، أبو حيدر، من نوع "يا ربي تجيبه في عينه!"، أو "أنت وحظك". كان أبو حيدر رئيس طباخين في شركة

الخطوط الجوية العراقية. إضافةً إلى الطرائف التي تروى عن طعام الخطوط الجوية، درجت على إبلاغ ضيوفنا المدعوين إلى العشاء بأن وظيفة أبي حيدر السابقة كانت تعني كونه أحد طباخي العراق المحترفين الأفضل. كان رؤساء طباخي الخطوط الجوية العراقية مكلفين بخدمة الخطوط الجوية الأجنبية الزائرة، ولذا فإن أبا حيدر كان قد جمع سائر أنواع الطبخ المختلفة في طنجرة واحدة. كان قد درس فن الطبخ الصيني في الصين، وفن الطبخ الإيطالي في إيطاليا، وهو في الجو. غير أن أبا حيدر كان قد عارض صدّاماً ورجاله في إحدى المنعطفات؛ رفض الغوص في التفاصيل، واكتفى بإقرار حقيقة أنه سُجن في أبو غريب. وهناك تعرض للتعذيب. تركز التعذيب على يدي أبي حيدر، أداتي الطبخ الأهم عنده. باتتا الآن مشوهتين، فصار يجد صعوبة في التقطيع والفرم الناجحين. على أي حال، كنت معجبة بالطريقة التي كان أبو حيدر يتعامل بها مع نصير الصغير بوصفه متدرباً، لا كما لو كان عبده الشخصي مثلما سبق لمنذر أن فعل، مما أدى أن انتعاش نصير الصغير وتطوره في ظل وصاية أبي حيدر ورعايته. حين اتصل أبو حيدر ليعتذر عن المجيء بسبب المرض، طلبت من نصير الصغير أن يتولى مهمة الطبخ. قلت له عبر أبي سيف: "أمضيت عامين اثنين وأنت تراقب هؤلاء الأصحاب. تستطيع أن تتولى الأمر بنفسك!"

أضفت: "قل لنصير الصغير، يا أبا سيف، إنني سأعود يوماً إلى بغداد وسأراه مدير مطعمه الخاص. قل له إن عليه أن يبقى مرفوع الرأس. قد يكون ضئيل الحجم، قزماً، غير أن ذلك لا يعني استحالة صيرورته رجلاً عظيماً."

تورد نصير الصغير، كبرياء ولكن مع حرج وارتباك، مع قيام أبي سيف بالترجمة. بقيت على الدوام مقتنعة بأن قولك للمرء إنه عظيم كفيل بجعله يرتفع إلى مستوى هذه العظمة، ولاسيما إذا كان شديد الإخلاص لك كما هي حال نصير الصغير معي. أطباقه كانت بسيطة، إلا أن نصيراً الصغير كان متوفراً على سلاح سري. كانت وظيفته كل ليلة تنظيف المائدة. كان يعرف الطعام الذي كنا

نتركه دون لمس والطعام الذي كنا نجهز عليه. في الليلة الأولى التي أعد فيها الطعام، قام بإعداد مأكولاتنا المفضلة، معتمداً على الذاكرة في إعداد صحن بطاطا مشوية وقصعة طماطم وفليفلة خضراء لي أنا وفروج مع مقالي فرنسية لكارل. ومنذ ذلك اليوم كان نصير الصغير يملأ الشاغر كلما دعت الحاجة إلى طباخ بديل. كنت قد جلبت معي من عمان عدداً من كتب الطبخ باللغة العربية في طريق العودة من رحلتي المجرية. شهدتْ حياةُ نصير الصغير تحسناً كبيراً مع استخدامنا لأبي حيدر. صحيح أن منذراً كان قد عاد في كانون الأول/ديسمبر ولكنه ما لبث أن ذهب إلى الحج، أو زعم ذلك. كنت أتشاجر مع منذر، متوسلة إحضار البديل بسرعة. غير أن منذراً كان يقول: "ليست تلك مشكلتي!"

"إلا أنك أنت الطباخ، (الشيف) من واجبك الاطمئنان إلى تناولنا الطعام. إذا لم تكن قادراً على ذلك فعليك أن تعثر على آخر." كان منذر يتجاهلني. هددته بالطرد، دبلوماسياً. لم نكن نستطيع أن نجعل أحداً يترك منزعجاً كثيراً. كان منذر يعرف المكان الذي نحن فيه. كان يعرف إجراءاتنا الأمنية، خطة هروبنا في الحالات الطارئة، ومخبئي الخاص في الفريزر. كذلك كان منذر يعرف أنني كنت ألوذ بالفطائر عندما يغيب. لم أكن أستطيع تناول الطعام الجاهز الذي كان الشباب يجلبونه من السوق لأنه كان يمرضني، مما كان يضطرني لتدبر أمر عشائي. كنت أشعر بنوع من الأنانية حين أعكف على إعداد شيء لي وحدي. جدتاي من الغرب الأوسط كانتا ستخجلان لو عرفتا بأني طبخت طعاماً ولم أتقاسمه. لم يكن منذراً يعرف شيئاً عن جدتي، غير أنه كان واثقاً من أن شيئاً، شعوراً بالذنب في هذه الحالة، كان يترجم إلى قيامي بتغطيته ومبادرتي إلى الطبخ للمكتب.

ما إن غادر منذر إلى الحج حتى استخدمنا أبا حيدر. كان هذا مهذباً ذا وجه دائري كبير دائم الانقضاض على حبيبات العرق المتكاثرة على رأسه المتزايد صلعاً في أثناء الطبخ. كان يبقى في المطبخ مع نصير الصغير، دائباً على تعليمه

فنون الطبخ، موجهاً إياه بلطف في أعمال التقطيع، الفرم، التحريك، والخبز. كثيراً ما كان أبو حيدر يرتكب الأخطاء، مبالغاً في إنضاج الخضار على النار ورافضاً الكف عن إضافة لمساته العراقية إلى المأكولات التي كنا نطلبها، جاعلاً إياها أشياء غريبة وغير قابلة للاستهلاك البشري عادةً. غير أنه كان مخلصاً، وتلك مسألة ذات شأن.

فيما كنا ننقر عشاءنا في سهرة عيد رأس السنة، سأل كارل: "المكان موحش هنا، أليس كذلك؟"

"صحيح، كانت الأعياد قاسية. وأنا مرهقة."

حركنا الطعام في طبقينا ـ بطاطا باردة، ناقصة السلق، بقول مهروسة.

وخزته: "سأكون صديقتك."

رد بانفعال: "عندي صديقة!"

ضحكنا بتحفظ ودفعنا كرسيينا بعيداً عن المائدة. عدت إلى غرفتي لأكتب مادة عن أن العام كان بالغ السوء بالنسبة إلى العراق، مادة كان من شأن القراء المحافظين أن يسارعوا، دون أدنى شك، إلى وصمها بـ "دعايات إعلام ليبرالي." لم يكن التصدي لمثل ذلك النوع من النقد. دأبت مقالاتي، دونما أثر للاعتذار أو اللف والدوران، على عكس يأس العراقيين الذين كنت أُجري المقابلات معهم. أما إذا تعلق الأمر بيأسي أنا فقد كنت أكثر وعياً ذاتياً. مستوحشة، حزينة، ومفتقدة للوطن، مهزومة أمام العنف، حاولت جاهدة ألا أعكس اكتئابي الشخصي على الشعب العراقي. في وقت أبكر من السنة، حين كان السفر داخل العراق لا يزال آمناً، كنا قادرين على الاهتداء إلى ومضات حياة طبيعية نتحدث عنها مع قرائنا. ثمة كانت قرى بعيدة عن الحرب وأخرى دائبة على إعادة البناء بمساعدة الجيش الأمريكي في المقام الأول. أما بعد حلول الحادي والثلاثين من كانون

الأول/ديسمبر 2004 فقد بات العثور على مثل هذه القصص الباعثة على التفاؤل صعباً. والجنود الذين تحدثت معهم وجدتهم أيضاً ساعين فقط إلى البقاء على قيد الحياة. مع تدحرج أيام عام 2005 الجديد كان العراق، بجزئه الأكبر، مكاناً بائساً.

حين اقتربت عقارب الساعة من منتصف ليلة رأس السنة، عدت إلى المطبخ لأعد قليلاً من الفشار (الذرة الصفراء المفتقة على النار - البوشار باللهجة الدمشقية) للحراس ولكل من كارل ولزملائه الصحفيين الذين كانوا يشاهدون فلماً في غرفة الجلوس. ولحظة دقت الساعة منتصف الليل أخذت قصعة كبيرة من الفشار إلى الحراس في الخارج. صرخت: "كل عام وأنتم بخير!"، تواقة لاختصار احتمال أن تكون السنة الجديدة سنة أفضل. هتف أحد الحراس زاعقاً، مديراً ظهره إليّ وإلى تحية معايدتي: "عودي إلى الداخل. ستصيبك رصاصة طائشة." وبالفعل فإن الحي كان قد تفجر وابلاً من نيران الأسلحة مع خروج العراقيين إلى الشوارع مطلقين نيران مسدساتهم وبنادقهم احتفالاً؛ لعلها كانت فشار التفاؤل بنظرهم.

بعد بضعة أيام أيقظتني رائحة غريبة. ذهبت إلى حوض السمك ووجدت ثلاث سمكات طافية وبطونها إلى الأعلى. تنفيذاً لتوجيهات فلاح بقيت ساهرة أمام الحوض ممكِّنة الأسماك من رؤية وجهي وسماع صوتي الداعي لها براحة النفس وهي تستعد للرحيل إلى تلك البحرة العظيمة في السماء. أدركتْ نبرةَ صوتي وجاءت إلى مكان قريب من الزجاج حين نقرت. أحياناً كان عمر وبسام يقرران أن يقفا معي أمام الحوض فنراقب بصمت مشهد الأسماك المتصارعة مع الموت. بدت رعايتي عند هذا المنعطف أشبه برعاية التكايا؛ إذ جسد المشهد صورة مجازية عاكسة لحال العراق بالذات. كثيراً ما كنت أشعر كما لو كنت أراقب بلداً يكافح لنفض شبح الموت عنه والعودة إلى الوقوف على قدميه. ومع ذلك فإنني، بوصفي غريبة، بوصفي مسعفة لا فاعلة مباشرة، لم أستطع إلا أن

أقف جانباً وأراقب الأحداث دائبة على التكشف. واصلنا الكتابة عن الحزن والأسى يوماً بعد آخر. ويوماً بعد يوم كان الاهتداء إلى بقعة ضوء أو بصيص أمل يغدو أكثر صعوبة. جميعاً كنا مندفعين بقوة، مشدودين بقلق، إلى انتخابات العراق الديمقراطية الأولى المبرمج عقدها في الثلاثين من كانون الثاني/يناير 2005. كم كنت أرجو أن نوفَّق جميعاً في إجرائها.

متنهدة وضعت الأسماك الميتة بحماسة في شبكة وأخرجتها من غرفتي. توقفت في المكتب حيث كان المترجمون جالسين خاطبتهم:

"تعالوا يا شباب. سنقيم جنازة."

جرجرنا أنفسنا إلى الحديقة حيث قام ضياء، أحد السائقين، بحفر حفرة. المترجمون، الطباخون، والحراس احتشدوا جميعاً وأصغوا إلى تلاوتي للمرموز 69 من الكتاب المقدس الذي تم اختياره لإشارته إلى الماء، ثم تمت مَرْجَحة المسابح المسيحية والإسلامية فوق الكتلة الطرية للقبر، مما جعل الطقس أشبه بما يفعله أي طفل حين يرحل حيوانه المدلل الأول إلى سماء القوارض. كررنا المشهد كلما نفقت سمكة أخرى إلى أن جرى دفن السمكات العشرين جميعها حسب الأصول. وعدني فلاح بالمزيد من السمك، السمك السليم المعافى. وبالفعل فقد وجدتني ميالة إلى التعايش معها. كانت رفقتها محببة، إضافة إلى أن همهمة المصفاة في الليل كانت تغريني بالنوم، كما لو كانت ترنيمة فقاعات مبقبقة. غير أني كنت عاجزة عن تحمل موت أي شيء أمام عيني في الحقيقة. بعد الجنازة الأخيرة نظفت الحوض دالقة الماء العكر الآسن في دورة المياه. حين أنجزت المهمة وجدتني مبللة بالماء العفن ومضطرة لتغيير ثيابي.

استيقظت صباح اليوم التالي مع صداع رهيب مصحوب بحمى. كان رأسي ينبض بقوة وأنا أجرجر نفسي دائخة إلى خزانة في غرفتي كنت أحتفظ فيها بزجاجة إيبو بروفن. انحنيت لفتح الخزانة، تعلقت بالباب، وغبت عن الوعي،

خالعة الباب من مفصلاته عندما هويت أرضاً. عندما عدت إلى الوعي وأنا ممدة على الأرض. كنت غارقة في بحر من العرق وعاجزة عن الحركة.

ناديت: "كارل" همساً. غير أني كنت أعلم أنه لن يكون قادراً على السماع. كان كارل ينام ساداً أذنيه بالسماعات في الغرفة المجاورة. فقط الدوي الأقوى لانفجار سيارة مفخخة كان قادراً على إيقاظه من نومه العميق بعد الإرهاق.

صرت أضغط بخدي على الأرض طلباً للبرودة ثم ما لبثت أن غرقت في نوبة حمى ودوار. بعد بضع ساعات وجدني أبو سيف على الأرض وساعدني على الانتقال إلى السرير. سارع العاملون العراقيون إلى استدعاء طبيب يثقون به، وجاء إلى البيت. كنت أعاني من صعوبة في التنفس، وكانت أضلاعي التي ارتطمت بباب الخزينة تؤلمني. عزا الطبيب الحرارة إلى نزلة برد شديدة وحقنني بالمورفين قبل أن أتمكن من الاعتراض. في الليل، كنت أهذي، حرارتي قفزت إلى 104 فهرنهايت. اتصل كارل بطبيب يعرفه في المستشفى العسكري الأمريكي بالمنطقة الخضراء. وافق الطبيب على معاينتي، فانطلقنا إلى المنطقة الخضراء. غرفة الإسعاف كانت هادئة عموماً، لولا صرخات بحّار يعاني من بحص في الكلية ومدنيَّيْن عراقيين كانا، على ما بدا، يعانيان من حروق نوع من أنواع المتفجرات. قام الأطباء بسحب قليل من دمي للتحليل وحقني بكيسين من الماء المالح، متعجلين علاجي لتمكيننا من المغادرة قبل بدء حظر التجول في الساعة الحادية عشرة. فالخروج في ساعات حظر التجول كان خطراً. كانت الشرطة العراقية تقوم بأعمال الدورية في الشوارع، ولم نكن واثقين من أنها لن تحيلنا على المتمردين. خَرَّجَني المستشفى مصحوباً بكيس بلاستيكي من مسكنات الألم مع توجيهات قضت بالإكثار من السوائل. أما التشخيص فقد تمثل بالزكام ونقص السوائل. لم يشر تحليل الدم إلى أي شيء غير عادي، ولم يكن ثمة أي وقت لأخذ صورة شعاعية. ولأنني كنت شديدة الضعف ودائخة غير قادرة على المشي قام أحد الجنود بدحرجتي على كرسي عجلات إلى الخارج حيث الهمفي

المنتظرة التي أقلتنا، كارل وأنا، إلى محيط المنطقة الخضراء، حيث كان سائقونا ينتظروننا. اندفعنا بسرعة عائدين إلى المكتب ونحن في سباق مع عقارب الساعة في الشوارع المظلمة. أُوْقِفْنا مرة غير أننا تابعنا طريقنا بعد أن قال ضياء إنه كان قد أسعف أخته إلى المستشفى. كنت في المقعد الخلفي متكورة كالطابة.

أَلْزَمَني كارل ببضعة أيام نقاهة للتعافي، ترددت في الامتثال. بوصفنا الوحيدين في المكتب خلال الأسابيع الأولى من كانون الثاني/يناير، كنا مشغولين جداً بالإعداد للانتخابات المقبلة والحصول على وثائق الاعتماد المناسبة لتغطيتها. ولأنه لم يكن قد أخذ أي إجازة في أشهر كان كارل هو الآخر يخطط لقضاء بضعة أيام في إجازة قصيرة بمصر. وهكذا فقد تعين علي أن أتدبر أمر المكتب وحدي عدداً من الأيام إلى حين عودة أنتوني شديد. لم يكن العنف يعرف معنى الرحمة. كانت القنابل تتفجر مثل ساعات التنبيه في طول المدينة وعرضها أكثر الصباحات، موقظة العراقيين ليوم دموي جديد. تعين علينا أن نغطي هذه الهجمات مع عدم إهمال تزويد موقع **الواشنطن بوست** الإلكتروني بالتقارير. جرى تكريس أيام غير قليلة لتعقب الأخبار السياسية والكتابة عن كل ما يحصل. ليلاً، كنا نتناوب على كتابة المادة الصحفية اليومية. كانت **البوست** قد نشرت، أقله، مادة واحدة من العراق في اليوم، باستثناءات قليلة جداً منذ الغزو الأمريكي في 2003. ونظراً للاقتصار على مراسل أو اثنين في المكتب دفعة واحدة، كانت الوتيرة استثنائية الإرهاق. كنت شديدة التعاطف مع كارل المرهق تماماً والعازم الآن على إحالة الأمر علي أنا. عملت من سرير المرض بضعة أيام. تولى عمر مهمة الرعاية والتمريض وراح يسلق لي البيض في الفطور. زودني الحراس بجهاز لاسلكي مرسل ومستقبل لتمكيني من التواصل مع المترجمين في الطابق السفلي لأني كنت أضعف من أن أنزل إليهم. رمز ندائي كان زوج ـ 4.

"أنا زوج ـ 4، هل ثمة من يقرؤني؟"

"نسمعك زوج ـ 4، حوّلي!"

"ما أحدث الأنباء الآتية من الموصل؟ هل سمعنا المخبر؟ هل لي أن أطلب بعض الماء؟".

عمودية الصعود والنزول خلال الأيام القليلة التالية ظلت الحمى تهجم وتتراجع، وبقيت محبطة جراء الألم الذي كنت أحس به في أضلاعي. تعين علي أن أشد على خاصرتي لدى نزول السلم لمنع الألم من بطحي أرضاً. كنت أعلم أن هذا لم يكن زكاماً. شعرت بأن أضلاعي مكسورة أو، أقله، مشعورة، واعتبرت ماء حوض السمك سبباً في مرضي. أن أمرض صباح اليوم التالي لتعاملي مع ماء صهريج الموت كان مصادفة استثنائية الغرابة. سارع كل من ديفيد هوفمان ورئيستي المباشرة محررة الصفحة المالية جيل دات، كليهما، إلى تشجيعي على مغادرة بغداد والذهاب إلى عمان للاستشفاء، إلا أنني كنت أضعف من أن أقوى على السفر. مررت بأيام سعيدة وأخرى شقية. واصلت كتابة المقالات. ذات ليلة، بعد عشرة أيام من انهياري الأولي، قَفَزَتْ حرارتي إلى الأعلى، ولم أعد قادرة على تحمل الألم. بذلت جهداً كبيراً لنزول السلم. كان أبو سيف في الأسفل يتحدث مع عمر. كنت موشكة على البكاء.

"ثمة خلل خطير يا أبا سيف. لا أستطيع التنفس".

هويت على الأرض منزلقة على الجدار.

رفعني أبو سيف. كان أوان الذهاب إلى المنطقة الخضراء قد فات. كان سيتعين على أحدهم أن ينقلني إلى أحد المشافي العراقية. اتصل أبو سيف بهدى التي صارت تعمل في مكتب **النايت رِدَر** القريب. جاءت فور تلقيها المكالمة. كنت سأحتاج إلى مترجمة تذهب معي لمرافقتي إلى غرفة الإسعاف. وإذ كان أنتوني في السيارة أيضاً، انطلقنا باتجاه مشفى مسيحي في بغداد، مكان قد لا يكون مخترقاً من قبل المتمردين حسب تقديرات الشباب. كانت مقامرة، بالنسبة إليهم

كما بالنسبة إلي. غير أن أحداً لم ير أننا كنا متوفرين على أي خيار آخر في تلك اللحظة. كانت حرارتي قد ارتفعت كثيراً جداً. أدخلتني هدى إلى غرفة الإسعاف. اهتدت إلى أحد الأطباء وهمستْ في أذنه. كانت قد قررت بسرعة أنه كان "صديقاً"، عبارة عسكرية في بغداد يوصف بها من هو في صفك. كانت إنجليزية الطبيب ممتازة. شجعني على خلع غطاء رأسي ووصف ما كان يحدث لي. أراد تصوير أضلاعي شعاعياً غير أنه قال كان سيتعين علي أن أعود مرة أخرى في اليوم التالي لتحقيق ذلك. كانت الأضلاع، المكسورة أو المشعورة، سبب ارتفاع الحرارة. كتب وصفة مضاد حيوي وبعض الدهون الطبية الرياضية وتركني مع هدى. نصحني قبل الخروج: "ضعي الغطاء على رأسك!"

"ما الذي يجري؟" سألتُ هدى.

"ص ص ص" قالت "المرأة المكلفة بإعطائك الأدوية ليست جديرة بالثقة. إياك أن تكلميها بالإنجليزية! إذا طرح عليك أي سؤال، سارعي إلى الإمساك بحنجرتك!"

قبل أن أتمكن من الاحتجاج - إذ كنت متوجسة من أخذ جرعة دوائية غير معروفة - دخلتْ امرأة ترتدي مريلة بيضاء وبيدها محقنة كبيرة. دفعتني هدى وجعلتني أتمدد على جنبي ثم رفعت ذيل تنورتي السوداء الطويلة. كدت أحتج ولكن هدى أسكتتني بسرعة. كان علي أن أبقى ممددة وأن آخذ هذه الإبرة الكبيرة. بعد الحقن، قامت هدى بتمسيد مكان الوخز، في حين كنت أنا شديدة المرض إلى درجة العجز عن تسجيل المهانة. ما إن خرجتْ المرأة، حتى سألتُ هدى عن طبيعة الحقنة. قالت هدى: "فاليوم". فكرت بيني وبين نفسي: **ما قصة هؤلاء الأطباء العراقيين هم ومهدئاتهم؟ يظنون أن المسكنات هي العلاج لجميع العلل.**

مع دخولنا غرفة الانتظار حيث كان السائقان وأنتوني ينتظرونني، قلت لهم بانفعال: "أنا على قيد الحياة كما ترون!"

تدخلت هدى، وهي تشدني جارة إياي، أنا المخدَّرة السَّكْرانة، إلى السيارة المنتظرة في الخارج، قائلة: "اسكتي! الإنجليزية ممنوعة! لا كلام بالإنجليزية!"

في وقت لاحق تلك الليلة، بعد دسي في السرير، خرجت هدى من الغرفة بعد أن لَفَّتْ رأسها بالغطاء جيداً كالعادة، راسمة ابتسامة ذات مغزى على وجهها وهي تغني بمرح: "مؤخرتك رأيتها! نعم رأيتها".

علقت متذمرة: "أي إنصاف في ذلك؟ أنا لم أر ولو خصلة واحدة من شعر رأسك."

ثم أخذني النوم.

قررنا أنه لم يكن آمناً بالنسبة إلي أن أعود إلى المشفى نفسه للتصوير بالأشعة، تحسباً من احتمال أن يكون أحد العاملين في المستشفى قد زود أحد المتمردين بمعلومة عن موعدي.

كانت هناء علام قد أتت على ذكر مرضي أمام المقدم باري جونسون، الناطق باسم عمليات اعتقالات الجيش. سارع باري إلى الاتصال مستفهماً عما إذا كان يستطيع أن يفعل شيئاً.

قلت له: "نعم يا باري، أنا بحاجة إلى صورة شعاعية. هل تستطيع أخذي إلى أبو غريب؟" كان الحصول على الرعاية الطبية في المنطقة الخضراء بالغ الصعوبة بالنسبة إلى الصحفيين المدنيين، بمن فيهم الأمريكيون. كارل الذي كان يعرف طبيباً هنا، كان لا يزال في مصر. علاوةً، لم يكن يحق لنا استخدام مشفى المنطقة الخضراء إلا إذا كانت إصاباتنا مهدِّدة للحياة. لم أر بعض الألم في الأضلاع وقليلاً من الحمى سببين كافيين، خصوصاً إذا كان الأطباء في المشفى مشغولين بمعالجة جنود إصاباتهم مرعبة ناجمة عن ألغام الطرق وغيرها من التفجيرات. ساءني أن آخذ وقتهم.

obeikandi.com

خلال العديد من الزيارات السابقة إلى أبو غريب، كنت قد قابلت عدداً من الأطباء والممرضين العاملين في المستشفى الميداني هناك، وكنت أعلم بأن المشفى كان مرفقاً طبياً من الطراز الأول مع جهاز ممتاز من العاملين الجنود. فوق ذلك كله، كنت قد اجتمعت برئيس الأطباء حين كنا، كلانا، في الفلوجة لمواكبة المعركة. قد يتذكرني ويمد لي يد المساعدة. قلت لباري إنني لن أذهب إلا إذا تمكنت من الاهتداء إلى قصة هناك أيضاً. لم أرغب في أن أكون مدينة بالفضل لأي كان، رغم معرفتي اليقينية بأن باري والفريق الطبي في أبو غريب كانوا مستعدين لتقديم خدمة كبيرة إلي، مع قصة ودونها. ومع ذلك فقد بقيت مصرة على تبرير الرحلة إلى هناك بسبب مهني.

التقيت باري في **ثكنة النصر (كامب فكتوري)** حيث كنا لمرافقة القافلة إلى أبو غريب. فكرت بالمخاطرة التي أقدمت عليها، مخاطرة قطع الطريق الخطرة الموصلة إلى الفلوجة لمجرد رؤية طبيب، للمرة الرابعة. بالكاد كنت أستطيع الصعود إلى الهمفي والنزول منها، وقد قمت برحلة مؤلمة حاطمة للعظام إلى أبو غريب وسترتي الواقية الثقيلة متدلية فوق أضلاعي. نقلني باري فوراً إلى مرفق الخدمات الصحية، وحصلت أخيراً على صورة شعاعية، معاينة كاملة، وتشخيصاً غير الزكام. صحيح أن أضلاعي لم تنكسر عند سقوطي، غير أني كنت قد فجرت بعض الأوعية الدموية الكائنة خلف الأضلاع، مما أدى إلى تشكل كيس من الدم. لم أكن، برأي الأطباء، قادرة على فعل أي شيء في الحقيقة سوى انتظار اختفاء بقعة الدم في جسمي وترك المضادات الحيوية تتولى أمر علاج الالتهاب الحاصل. شعرت بالاطمئنان والامتنان. تلك الليلة أخذني باري إلى مطعم السجن، حيث أجهزت على جبل من الخس. "مستعدة أنا لدفع أي ثمن مقابل الحصول على الخس، أليس كذلك؟" قلت وتبادلنا الضحك، وقد كانت ضحكتي الأولى منذ صباح غيابي عن الوعي، شاعرةً بأني موشكة على التعافي.

بعد العودة إلى بغداد، حولت اهتمامي نحو الاستعداد للانتخابات العامة، لتلك اللحظة التاريخية بالنسبة إلى العراق والخطوة السياسية الحاسمة على طريق الإدارة الذاتية الحقيقية. كان العراقيون سيذهبون إلى مراكز الاقتراع لانتخاب قادة محليين وجمعية وطنية مؤلفة من 275 عضواً مكلفة بوضع دستور جديد. ما يزيد على 14 مليوناً عراقياً، بمن فيهم أولئك الموجودون فيما وراء البحار، كانوا متمتعين بحق التصويت، غير أن المتمردين كانوا يهددون بأعمال عنف واسعة الانتشار يوم الانتخاب، حافزين الحكومة على إعلان حظر التجول في الأيام الثلاثة المفضية إلى ذلك اليوم. خططت الحكومة العراقية وهيئتها الانتخابية المستقلة لاعتماد شارات خاصة للصحفيين كي نتمكن من التحرك رغم حظر التجول. بداية طلبت وزارة الداخلية العراقية أن تكون سياراتنا معلمة بلصاقات خاصة وأن يتقدم سائقونا ومترجمونا بعناوين إقامتهم مع طلبات الشارات. رفضت الأمر، وبادرنا، مع طائفة صغيرة من المنظمات الإعلامية الغربية، إلى توقيع خطاب احتجاج. إن كشفنا عن عناوين إقامات عاملينا العراقيين كان يعني تمكين الوزارة من إيجاد قاعدة معلوماتية عن العراقيين الذين كانوا يعملون لدى الشركات الأجنبية. كان من شأن الحصيلة، إذا ما وصلت تلك المعلومات إلى الأيدي الخطأ، أن تكون كارثية وقاتلة. كنا على علم بمدى فساد الحكومة العراقية، اضطررنا إلى دفع الرشى: للحصول على رخص حمل السلاح، جوازات السفر، تصاريح الإقامة. كثيراً ما كان صغار الموظفين الحكوميين يستجدون. راجعت ممثلية الوزارة الموجودة في مقر اجتماعات المنطقة الخضراء مرتين ملتمسة وثائق الاعتماد دون إرغامنا على تقديم عناوين الإقامة. شرحت مدى خطورة الأمر. آذان الجميع صماء. ثم وجدت الحل. بعد العودة إلى المكتب بينت لعمر كيف كنا نستطيع إدخال صور جوازات السفر وتذاكر الهوية الوطنية في الكمبيوتر، وتوظيف برنامج تصوير سوفت وير بسيط لتعديل أرقام وأسماء العناوين وصولاً إلى إعداد نسخ مزوَّرة. لم أكن فخورة

بالأمر. لم أكن راغبة في فعل هذا، إلا أن الحكومة الفاسدة كانت تمهد لكارثة حقيقية، ولم يكن ثمة أي سبب يجعلنا نعرِّض حيوات العاملين عندنا للخطر. لحسن الحظ، ما لبثت الثورة بين صفوف الإعلاميين الغربيين أن فعلت فعلها، وتراجعت الوزارة عن هذا الجزء من مطلبها. لم نعد ملزمين بتسجيل سائقينا وسياراتنا. غير أن المترجمين ظلوا، إذا ما أرادوا مرافقتنا إلى صناديق الاقتراع، ملزمين بتقديم معلوماتهم إلى الهيئة الانتخابية المستقلة. لم يكن ثمة ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن هذه الهيئة الانتخابية المستقلة. لم يكن ثمة ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن هذه الهيئة كانت فاسدة رغم أن المترجمين حافظوا على هواجسهم إزاء مدى تمتع العاملين لديها بالثقة وحول هوية أولئك الذين سيتمكنون من الإطلاع على القاعدة المعلوماتية. في النهاية، قرر المترجمون ملء الاستمارات حرصاً منهم على المشاركة في تغطية الانتخابات. تعين علينا بعد ذلك أن نلتفت إلى مسألة حظر التجول. كان من شأن التنقل من البيوت وإليها في أثناء الانتخابات أن يظل منطوياً على أخطار جسيمة، فبادرنا إلى حجز غرف فندقية قريبة من المكتب لإيوائهم.

كارل، العائد من إجازته في مصر، قرر إيفادي إلى الشمال الكردي من العراق لتغطية الانتخابات من هناك. كان هذا هو الحدث الأكبر منذ غزو الولايات المتحدة: كان المستقبل السياسي للعراق هو الذي سيقرَّر ويُحْسَم. ما من أحد كان يعرف عدد العراقيين الذين سيبادرون إلى الخروج للتصويت، أو مدى ضخامة العنف الذي كان سيميز ذلك اليوم. للمرة الأولى اكتمل نصاب مكتبنا استعداداً لتغطية الحدث. كان كامرون بار، القادم من واشنطن، سيتمركز في المنطقة الخضراء التي كانت نتائج الانتخابات ستُعلن منها. أما أنتوني وكارل فقد خططا لتولي مسؤولية توجيه تغطيتنا في بغداد. ستيف فانيارو كان قد أصبح متمركزاً مع الجيش الأمريكي في الموصل الشمالية. ودوغلاس سترك، مراسل **البوست** في كندا، كان متوجهاً إلى النجف في الجنوب. برغبة صادقة من جانبي

كنت قد أرجأت عودتي إلى الولايات المتحدة مرة أخرى لأتمكن من الإسهام في تغطية الانتخاب التي بدت الفصل الختامي للغزو الأمريكي وإن بدت "قصة العراق" مرشحة للدوام **إلى ما لا نهاية**. ما من أحد كان يتوقع من الانتخابات أن يضع حداً للعنف أو ينهي حركة التمرد. فالحكومة المنتخبة حديثاً لم تكن لتدوم إلا سنة واحدة. وإذا ما سارت الأمور حسب الخطة فإن العراقيين كانوا سيذهبون إلى صناديق الاقتراع مرة أخرى في غضون عام واحد بعد اعتماد دستور وإطار جديدين لحكومة دائمة. لم يكن الانتخاب الأول ليوفر سوى خاتمة غير مؤكدة، إلا أنها كانت خاتمة على أي حال. أو بدت لي كذلك آنذاك.

كنتُ بحاجة إلى خاتمة بالنسبة إلى لمى أيضاً. وقد جاءت فعلاً، قبل الانتخابات بثمانية أيام. أعلن الجيش الأمريكي اتهامه لجنديين بجريمة قتلها. تحدد موعد المحاكمة العسكرية للمتهمين في الثاني والعشرين من كانون الثاني/يناير. لم نطلع على أي تفاصيل أخرى، سوى أن هذين الجنديين كانا متورطين. البيان الصحفي الصادر عن الجيش لم يسم لمى. كنت واثقة من أن من شأن منابر إعلامية أخرى أن تتلقى البيان دون أن تعرف أن عزيزتنا لمى كانت هي "مترجمة" الجيش التي عُد الجنديان مسؤولين عن موتها. أعلمت أكبر عدد ممكن من المراسلين بالأمر، آملة تحقيق أوسع تغطية إعلامية ممكنة للمحاكمة العسكرية. أقصيت نفسي عن عملية التغطية لكوني قريبة جداً من لمى وأسرتها، فوافق دوغ ستترك على القيام بالمهمة بدلاً مني. ومع ذلك فقد كنت راغبة في الذهاب إلى المحكمة العسكرية وسألت عمر عما إذا كان هو الآخر راغباً في ذلك. بدا وجود عضو من جهازنا العراقي في جلسات المحاكمة المعقودة في **ثكنة الحرية (لبرتي كامب)**، قاعدة متقدمة للجيش قريبة من مطار بغداد، أمراً بالغ الأهمية. أعلمني شقيق لمى بأنه لن يكون هناك. رأى أن من شأن جلب العائلة إلى قاعدة عسكرية أن يكون شديد الخطورة. وعدت بإطلاعه على ما يحدث، على كل تفصيل من التفاصيل.

ذات صباح ماطر، بُعَيْد رفع حالة حظر التجول في السادسة صباحاً، انطلقنا، دوغ، عمر، وأنا، باتجاه **ثكنة الحرية (كامب لبرتي)**، لنكتشف، أخيراً، ظروف موت لمى وملابساته. قامت **النيويورك تايمز والنايت ردر**، كلاهما، بإيفاد مراسلين. اقتصر الحضور الإعلامي عليهما. مقتل مترجمة عراقية كانت تعمل مع الجيش لم يكن خبراً كبيراً في السياق الأوسع لما كان جارياً على قدم وساق في العراق. كنت قد اعتمدت هذا النوع من التقدير مرات كثيرة رائزة مخاطر قطع طريق المطار هذه ثمناً لأي قصة منتظرة في الطرف الآخر. إلا أن هذه لم تكن أي قصة. كانت هذه قصة لمى. وكانت قد وصلت إلى نهايتها.

مع تتابع جلسات المحكمة العسكرية، تكشفت لنا تفاصيل ذلك الفصل الختامي. في صباح الثالث والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، كانت لمى في إحدى غرف الاستراحة بقاعدة الجيش في بغداد حيث كانت تعمل مترجمة في أحد معتقلات المتهمين العراقيين بالتمرد. تمثلت مهمة لمى بمساعدة محققي الجيش في استجواب السجناء. رؤساؤها كانوا معجبين بمهاراتها. كانت تترجم بدقة ما يقوله الموقوفون، كلمة كلمة ـ مراسلة ناجحة. لم يكن في غرفة الاستراحة ذلك الصباح سوى شخصين آخرين، الجندي تشارلي إل. هوزر والجندي رامي إم. دجاني. وحسب شهادة هوزر، كانوا "يمزحون مزاحاً سمجاً وفظاً." ناوله دجاني مسدساً كان في درج الخزانة. سدده هوزر على رأس لمى وضغط على الزناد. أصيب برعب شديد حين خرجت الطلقة. أفاد دجاني بأنه كان يُفْتَرض ألا يكون المسدس مذخراً عندما قدمه إلى هوزر، وأفاد الأخير بأنه افترض الشيء نفسه. كانوا جميعاً أصدقاء. لم يقصد قتل لمى. قال الجنديان إنهما كذبا في البداية أمام محققي الجيش، زاعمين أن لمى انتحرت، خوفاً على مهنتهما، عائلتيهما، ومستقبلهما.

هوزر الضاغط على الزناد أقر بذنب القتل غير العمد والشهادة الكاذبة. وأقر الدجاني بذنب تسهيل الجريمة والإدلاء بشهادة كاذبة. بكى الرجلان في

المحكمة وهما يرويان قصة ما كان قد حدث. كانا يبكيان وهما يلتمسان الرحمة من هيئة المحكمة. كانا يبكيان رثاء لحال أسرتيهما، لمستقبليهما، اللذين باتا مدمرين بالتأكيد. وبموجب صفقة مع نيابة الجيش العامة حُكم هوزر بثلاث سنوات سجن. في حين كان حكم دجاني ثمانية عشر شهراً في السجن. كلاهما جُردا من شاراتهما وأُبعدا من الجيش طرداً.

لدى خروجهما من قاعة المحكمة، قلت لعمر: "أقله حصلت على العدالة. أنا لا أستطيع إعادتها إلى الحياة. ولكننا، أقله، وفرنا لها العدالة."

سأل عمر: "أي عدالة؟ كانا صديقين لها. كم كانت لمى ستمقت هذا!"

أعلم أنه كان محقاً. مع أنها فقدت حياتها، فإن لمى كانت ستتسحق تحت وطأة العقوبة التي نزلت بصديقيها نتيجة لذلك. رجوت فقط، إذا كان الجنديان قد قالا الحقيقة - إذا كانا يمزحان مزاحاً سمجاً في اللحظة التي سبقت مقتلها - أن تكون لمى قد ماتت ضاحكة.

بعد ثلاثة أيام غادرت إلى الشمال الكردي وفي جعبتي أجوبة عن موت لمى ولكن دون سلام. ابنة لمى، سارة، اختفت بعد المحكمة العسكرية، وبالرغم مما بذلناه من جهود للوقوف على ما حصل لها ولعائلتها، فإننا لم نسمع عنهما قط مرة أخرى. وعدي للمى برعاية ابنتها كان شاغلاً لي وأنا متوجهة إلى الشمال. إن الطريق الرئيسة إلى الإقليم الكردي تمر عبر الأطراف الشرقية للمثلث السني المضطرب، حول بعقوبة، حيث كان الجنود قد أقاموا نقطة التفتيش لإلقاء القبض على مفجري الألغام. تواصل الطريق مسيرتها إلى كركوك، وهي مدينة غنية بالنفط غارقة في تواترات عرقية لم تزد إلا تفاقماً مع اقتراب موعد الانتخابات. جميع الأعراق من كرد، عرب، وتركمان، تدعي حق إدارة كركوك. كثيرون من العرب والتركمان كانوا متوجسين من أن من شأن فوز الأكراد في

الانتخابات أن يؤدي إلى إلحاق المدينة بالإقليم الكردي في شمال العراق، وهو الإقليم الباقي خارج سيطرة الحكومة العراقية المركزية منذ عام 1991.

مع اقتراب موعد الانتخابات، بدأت عشرات الآلاف من الأكراد المطرودين من كركوك في عهد صدام تعود إلى المدينة للتصويت. فبموجب حملة التعريب إلى أطلقها حزب البعث العراقي عام 1963 وتابعها صدام بحماسة بعد الإمساك بزمام السلطة، جرى إحلال مستوطنين عرب محل أكراد كركوك والقرى والبلدات المحيطة. عودة الأكراد للتصويت أثارت حفيظة العرب الذين رأوا أن الكفة الانتخابية باتت تميل لغير صالحهم. ما لبث التوتر بين الطوائف أن تفجر عنفاً عشية الانتخابات ـ مكاتب أحزاب سياسية كردية هوجمت، مراكز للاقتراع فُجرت، وموظفون حكوميون باتوا يخافون الاغتيال. لم أكن راغبة في اختراق ذلك كله أو في تعريض أحد سائقينا ـ وجلهم عرب ـ للخطر.

بدلاً من الذهاب بالسيارة، قررنا إرسال عمر الثاني، السائق، وحده في سيارة مصفحة. لم يكن ليتعرض لأي سوء إذا لم يكن بجانبه أي أمريكي. أما أنا فكنت سأسافر جواً، مستقلة إحدى طائرات المنظمات غير الحكومية التي كانت تستخدمها الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية. لم يسبق لي أن كنت في المناطق الشمالية الخاضعة للأكراد بعد كركوك مباشرة. كان الأكراد قد تمتعوا بعقد من الحكم شبه الذاتي القائم على ممارسة الديمقراطية، وكانت المنطقة تُعد إحدى المناطق الأكثر أمناً وسلاماً في العراق. غير أن الحال لم تكن كذلك على الدوام. طوال بقائه في السلطة ظل صدام يمارس سلطة بالغة القسوة ضد الأكراد، إذ أزال قراهم واستخدم ضدهم أسلحة كيميائية في حملة الأنفال عام 1988. منظمة هيومان رايتس ووتش/الشرق الأوسط تقدر أن ما يزيد على 100.000 كردي فقدوا حياتهم في ظل صدام.

عندما وصلت إلى مطار بغداد للسفر جواً إلى أربيل، عاصمة الإقليم الكردي، أراد أحد موظفي الجوازات والهجرة أن يعاين سمة دخولي. قلت له:

"فيزا؟ تأشيرة؟ لست بحاجة إلى تأشيرة للانتقال إلى مدينة أخرى في البلد نفسه." غير أن الرجل بقي مصراً. اتصلت بأبي سيف في المكتب وطلبت مساعدته. ربما لديه معارف في المطار قد ألوذ بهم. خطر لي احتمال أن يكون ضابط الجوازات ساعياً إلى نفضي لابتزاز بعض المال. كان رصيدنا المالي في المكتب قد تضاءل ولم يكن معي سوى مبلغ صغير للإنفاق في كردستان. تعين علي أن أقترض 1000 دولار من بسام لأصبح قادرة فقط على تغطية مصاريفي. سارعت إلى ضرب الأخماس بالأسداس. تبين لي أنني أستطيع أن أدفع للضباط 20 دولاراً تقريباً، مبلغ زهيد كرشوة، ولكنه هو المتوفر. أقحمت الورقة النقدية في جواز سفري طالبةً منه أن ينظر إلى التأشيرة التي تخولني دخول العراق. أزاح يدي وراح يتكلم بالعربية عبر جهازه. لم أعرف ما إذا كان يستدعي الشرطة مما دفعني إلى التقاط حقيبتي والهرب إلى الخارج حيث الحاجز. اتصلت بسائقينا طالبة منهم أن يعودوا أدراجهم لمقابلتي عند نقطة تفتيش المطار لإعادتي إلى المكتب. في هذه الأثناء كان أبو سيف قد اتصل بأحد مدراء الخطوط الجوية العراقية الموشكة على تسيير رحلات جوية في وقت لاحق من الشهر بين بغداد وأربيل. كانت الطائرة مجهزة للقيام برحلة تجريبية لاحقاً في ذلك اليوم. كانت الخطوط الجوية العراقية مستعدة لتأخير إقلاع الطيران من أجلي بضع ساعات شرط أن أتمكن من تسوية وضع أوراقي. لم أستطع ذلك في الحقيقة. كنت بحاجة إلى تصريح إقامة يجيز لي مغادرة العراق. ومع أنني لم أكن أغادر العراق، كنت قد تجاوزتُ تأشيرتي المؤقتة ذات الأسابيع الستة التي كانت الحكومة العراقية قد منحتها. جل الصحافيين كانوا يقيمون في العراق بموجب هذه التأشيرات المنتهية صلاحيتها إلى أن يحين موعد السفر والاضطرار إلى الحصول على تصريح الإقامة السليم المطلوب من أجل مدة الإقامة الأطول. لم يكن ضباط الهجرة والجوازات في المطار يهتمون إلا بما إذا كان تصريح الإقامة مطبوعاً على إحدى صفحات جواز السفر، لا بما إذا كنا قد

تجاوزنا فترات تأشيراتنا ونحن في البلد. كان الحصول على تصريح الإقامة عملاً شاقاً. كان يتعين علينا أن نسلم جوازات السفر ثم نعود لاستلامها بعد بضعة أيام. كان الأمر مزعجاً، مع إدراك أن الحكومة العراقية قد تحتجز جوازات سفرنا رهائن إلى أن ندفع الثمن الذي يحلو للموظف الصغير خلف المكتب أن يطلبه مقابل إعادتها. لم أكن متوفرة على الوقت اللازم للانخراط في اللعبة. لم يكن قد بقي لي سوى بضعة أيام قبل الانتخابات وكان لابد لي من أن أكون في كردستان لتغطيته. وهكذا فقد قدمنا رشوة بمبلغ مئة دولار إلى وزارة أخرى للحصول على الختم الذي كان ينبغي أن يكون دون مقابل. مزودة بالختم أصبحت أخيراً مؤهلة للطيران إلى أربيل بعد ظهر اليوم التالي مع إحدى الرحلات الجوية المستأجرة.

استأجرت مترجمين في أثناء وجودي في كردستان. واحدة، شيرين، كانت مضيفة سابقة في الخطوط الجوية العراقية سبق لها أن عملت في مكتبنا البغدادي إلى أن هددها الصدّاميون جراء عملها مع أمريكيين، مجبرينها على الرحيل إلى مسقط رأسها، أربيل. تخضع كردستان لحزبين سياسيين متنافسين: الحزب الديمقراطي الكردستاني (KDP) والاتحاد الوطني الكردستاني (PUK)، تقع أربيل في منطقة الحزب الديمقراطي الكردستاني في النصف الشمالي. وقد أدى ذلك إلى جعل شيرين من أعضاء هذا الحزب. كنت بحاجة أيضاً إلى مترجم أو مترجمة من الاتحاد الوطني الكردستاني ـ شخص مقيم في المنطقة الخاضعة لسلطة البوك (PUK). كان كارل قد استخدم مترجماً من السليمانية الواقعة في الجزء الجنوبي من الإقليم الكردي خلال الغزو الأمريكي. لذا فقد استخدمت ساروك أيضاً، ودفعت له طالبة منه أن يلقاني في أربيل. دفعت لكل من ساروك وشيرين الأجرة اليومية الدارجة البالغة 50 دولاراً، وهي الأجرة التي قامت، جنباً إلى جنب مع فواتير الفندق، بالتهام الجزء الأكبر من سيولتنا النقدية. تعين علي أن ألغي وجبة العشاء أكثر الأماسي لعدم قدرتي على

تسديد القيمة. لم يكن العراق يعرف إلا الدفع نقداً، بالرغم من أنني تمكنت من تسديد جزء من أجور ساروك عن طريق جعل كارل يحول مبلغاً من مصرفه في تركيا إلى دكانة صرافة في السليمانية.

في كردستان كنت مفلسة ولكن حرة ـ حرة في أن أقطع الشوارع مشياً دونما قلق من أي تعرض للاختطاف. وضعت غطاء الرأس في قاع حقيبتي وتركته هناك. خلال فترة الأشهر التسعة التي قضيتها في العراق كلها، لم أكن قد خرجت ولو لمرة لتناول الطعام في أحد المطاعم، في مغامرة طائشة وخطرة بعد نحو عامين من الغزو الأمريكي. في المرة الأولى التي دعانا فيها ساروك، عمر الثاني وأنا، إلى تناول الطعام في مطعم صغير بأربيل، ترددت. سألته: "هل أنت متأكد؟ هل هذا آمن؟"

رد ساروك ضاحكاً: "بالطبع. أنت في كردستان الآن. أنت حرة."

أوراق الاعتماد الانتخابية التي حصلت عليها من وزارة الداخلية العراقية والهيئة الانتخابية المستقلة في العراق لم تكن نافذة في هذا الجزء من العراق، مجرد إشارة إلى مدى استقلالية الإقليم عن الحكومة المركزية في العراق. زودتني حكومة الإقليم الكردي بمجموعة جديدة كاملة من الوثائق. تعين علي أيضاً أن استحصل على وثيقة اعتماد خاصة من الحزب الديمقراطي الكردستاني "الكي. دي. بي" (KDP) وبطبيعة الحال فإن هذه الأخيرة ما كانت لتعد نافذة لدى انتقالي إلى منطقة الاتحاد الوطني الكردستاني البوك (PUK)، مما ألزمني بالحصول على خطاب منفصل من مسؤول مكتب الإعلام الحزبي حين سافرنا، ساروك، عمر، وأنا إلى السليمانية بعد الانتخاب.

على الرغم من أنني كنت سافرت جواً إلى كردستان لتجنب كركوك، فإن كارل وأنتوني طلبا مني زيارة المدينة قبل الانتخاب لمعاينة مزاجها. **فالبوست** لم يكن لها أي مراسل في المدينة منذ أشهر، وتقاريرنا عن الصدامات العراقية

المتصاعدة وعنف المتمردين المتزايد كانت مأخوذة، بأكثريتها من مخبرنا هناك. للقيام بهذه الرحلة لففت نفسي بأكثر عباءاتي محافظة ورأسي بغطاء معتبر. كان عمر الثاني وساروك شديدي الذعر من احتمال ضبطهما بصحبة أمريكية، فيتعرضان للقتل فوراً. ومع أن عمر الثاني كان عربياً وساروك كردي الأصل، فإنهما نجحا فوراً في عقد نوع من الصداقة. كان لكل منهما ابن يحمل اسم مصطفى، وكلاهما كانا في القوات الجوية العراقية. كان ساروك مسلماً محافظاً، غير أنه كان منفتحاً إلى درجة أنه وافق على تمكيني من رؤية الجامع في مسقط رأسه. كان رجل أفكار، عاكفاً باستمرار على الخربشة في دفتره مسجِّلاً فيضاً من الأسئلة والأفكار ليتذكرها لاحقاً. كان ساروك مؤمناً بالمستقبل، مؤمناً باحتمال مجيئه. كان ساروك ينصح عمر قائلاً: "حاول أن تكون مثلي، أنا الإنسان المتفائل دائم الإيمان والثقة بالرب الذي سيوفر مستقبلاً أفضل وشاطئاً آمناً. نعيش في أزمانٍ بائسة ولكن صدقني حين أقول لك إن الشمس تسطع بعد المطر، ضوء النهار يأتي بعد الليل، السلام بعد الحرب، والنور بعد الظلام."

كانت شيرين متفرغة للعمل لدى إحدى شركات التنمية في أربيل ولم تكن قادرة على مرافقتنا الوقت كله. وبالتالي فقد تخلفت عنا في أربيل عندما قمنا بزيارة كركوك. خلال مسافة الساعة بالسيارة إلى المدينة، قمت بدس جميع وثائقنا المثبتة لهوياتنا الشخصية في صدريتي. قلت للشباب: "أي شيء عليه ولو حرف واحد بالإنجليزية هاتوه!" جاءني إلى المقعد الخلفي دفاتر ساروك مع رسالة تعرف به مترجماً لدى **البوست**. ناولني عمر إجازته للسوق الصادرة عن **البوست**. "ما هذا يا شباب؟! ألم أحذركم من اصطحاب أي أشياء من هذا النوع!؟" انتقدتهما، وإن نجحت في حشر كل نتفة تحت صدارتي، حتى انغرزت الحمالات، المشدودة من ثقل أكبر مما حملته في أي وقت مضى، في بشرتي. حتى لو جرى تفتيش السيارة أو الشابين، لما استطاع أحد أن يمس صدري.

عند مشارف كركوك، شاهدنا رتلاً طويلاً من باعة وقود السوق السوداء (الوقود المهرب). لم أستطع مقاومة إغراء مفارقة نقص الوقود في أحد أغنى حقول النفط بالعراق، وطلبت من عمر الثاني أن يصف السيارة لأتمكن من إجراء مقابلة مع أحد المبادرين (مهربي الوقود). دس ساروك رأسه بين المقعدين الأماميين وقال:

"ليس هنا يا جاكي. هذه بقعة شريرة. سأجلبه لك."

قفز ساروك من السيارة، ورأيته من النافذة وهو يتكلم مع أحد باعة الوقود من وعاء على المقعد بجانبي. عبر الشبابيك الملطخة لم يكن أحد ليستطيع أن يرى أمريكية تجري معه مقابلة من خلال مترجمها الكردي.

كان زاكا عمر في الحادية والخمسين من العمر، رجلاً ناحلاً تفوح رائحة البنزين من ثيابه. عيناه سوداوان، حزينتان مع دوائر قاتمة تحتهما. كان زاكا عمر هذا يبيع البنزين المهرب. قبل أربع سنوات قامت حكومة صدام بتخيير عمر، وهو كردي الأصل، بين خيارين اثنين: إما أن يغير انتماءه العرقي الحقوقي إلى انتماء عربي أو يرحل عن كركوك وعن منزله العائلي الموروث. أفاد: "لم أكن متوفراً على أي مال. لم أرغب في الرحيل، فانقلبت إلى عربي".

سألته عن شعوره إزاء الانتخاب. ابتسم ثم أطرق قائلاً: "سأشارك في الانتخاب باعتزاز وشرف و... بروح كردية. نحن شديدو التعطش إلى هذه الانتخابات، تماماً مثل شخص متعطش للماء".

رده كان نموذجياً بالنسبة إلى الأكراد الذين قابلتهم قبل الانتخاب. بدوا فخورين بامتلاك فرصة التصويت والقدرة على إرسال ممثليهم إلى الحكومة المركزية في بغداد.

عدنا سالمين إلى أربيل، حيث التقينا، ساروك وأنا، جماعة صغيرة تقوم بالدعاية للحزب الديمقراطي الكردستاني (الكي. دي. بي) (KDP) على امتداد

شارع مزدحم في حي المدينة التجاري. دعانا زعماء الحزب إلى مرافقتهم في اليوم السابق للانتخاب في جولة دعائية عبر المدينة. قفزنا إلى الحافلة وجلسنا على مقاعدنا دون أن نعرف الجهة التي سنسير نحوها. بُعيد ذلك تزاحمت السيارات حول حافلتنا وكان الناس يلوحون بأعلام الكي. دي. بي. KDP ذوات اللونين الأصفر والأحمر. هرع عدنان إسماعيل، القائد الحزبي الذي كان قد دعانا إلى الجولة، إلى مؤخرة الحملة الدعائية وأزاح بعصبية ستاراً أزرق داكناً ليتمكن من الرؤية. مئات السيارات الزاعقة كانت تتبعنا في احتفال مرتجل متدرج عبر أحياء المدينة القديمة. أخرج الركاب أجسادهم من العربات وراحوا يصرخون، يهتفون، يلوحون بالعلم الأصفر للحزب الديمقراطي الكردستاني وبالعلم ذي الألوان الأحمر، الأبيض والأخضر للإقليم الكردي.

استدار إسماعيل عن الشباك، والدهشة بادية على وجهه. داخل الباص كانت مجموعة من مقاتلي حرب العصابات السابقين المتقدمين في السن، الملتحين، قد أطلقت إحدى الأغنيات الثورية القديمة. اغرورقت عيونهم بالدموع فيما واصلوا الغناء بأصوات مبحوحة: "علمنا يرفرف عالياً في السماء. مازلنا أحياء. الأكراد أحياء. ليس ثمة أي مدفع يستطيع تحطيم إرادتنا."

قائد الحزب المحلي في حي تاجيل الأربيلي الدائب على التحرك الدائم داخل الحافلة لمراقبة المشهد المتكشف على أطراف الحافلة، إسماعيل قال: "كنا نحلم بمجيء هذا اليوم. سنبادر الآن جميعاً إلى اختيار ممثلينا للمستقبل. ما من كردي إلا ويتمنى أن يرى هذا اليوم."

نظرت إلى ساروك. كان قد اختطف علم الحزب وراح يلوح به عبر النافذة، والدموع تملأ عينيه. قال: "مهما عشت لن أنسى هذه اللحظة.

خارج النافذة، وقفت سيارة بداخلها شاب يصرخ بأعلى صوته: "أمريكية؟ أنت أمريكية؟" تملكني الرعب. كان علي أن أضع غطاء على رأسي. كنت في

ورطة. اقتصر رد الشاب على الابتسام. كنت مادَّةً رأسي عبر النافذة التقط الصور فيما كان ساروك مثبتاً إياي من ساقي. افترض فقط، وكان على صواب، أنني من أمريكا. "أهلاً بك أيتها الأمريكية! كردستان ترحب بك. نحن نحبكم."

ابتعدت عن النافذة لأحافظ على اتزاني. كانت المرة الأولى، منذ مجيئي إلى العراق، التي شعرت فيها بأنه مرحب بي، شعرت فيها بمدى سعاد الناس بالوجود الأمريكي في العراق، بوجود صحفية تتولى مهمة التوثيق لتاريخ العراق.

بدت المدينة كلها زاخرة بحيوية الترقب مع مواصلة المرشحين ومؤيديهم إطلاق الأغاني الكردية القديمة عبر مكبرات الصوت المثبتة على أسطح المقرات الحزبية، التلويح للسيارات العابرة من على كراسي بلاستيكية مصفوفة على الأرضية، والدوران عبر الشوارع في قوافل سيارات مظللة بالأعلام المرفرفة. همس ساروك في أذني: "ذات يوم سينعم جميع العراقيين بهذا."

في أمكنة كثيرة أخرى من العراق كان الناخبون متوجسين من الانتخاب، خائفين من عنف المتمردين ومرتابين إزاء العملية السياسية. أما في أربيل، حيث ساد نوع من الإحساس بأن أمراً عظيماً موشك على أن يحصل، فقد كان الأمر مختلفاً. بدا وكأن المدينة كلها قد خرجت من حفلة عرس.

في الحافلة معنا، لم يحاول عنصر **بشمركة** متقاعد، أي عنصر حركة كردية كفاحية، يدعى رقيب شيخان، إخفاء اعتزازه. شارك في إنشاء الأغاني الثورية وظل يلوح بالعلم الكردي خارج شباك الحافلة. بدا وجهه الملوح بالشمس مشرقاً وهو يقول: "لقد طال انتظارنا لهذا. كابدنا الكثير من الآلام في سبيل الوصول إلى هذه الحرية. نريد أن نكون مثل باقي العالم."

فيما يخص الانتخاب، كانت كردستان خاضعة للقيود المطبقة في أقاليم العراق الأخرى. مكاتب الاقتراع كانت محروسة بكثافة، ولم نكن قادرين على التنقل بين المناطق دون لوحة على سياراتنا تفيد بأننا صحفيون. عمر الثاني،

وهو المدمن على أعمال العنف في بغداد، لم يرد لنا أن نذهب ضحية نوع من الإحساس الزائف بالأمن. في الحادي والثلاثين من كانون الثاني/يناير 2004، أقدم انتحاريان على تفجير نفسيهما في مكتبي حزبي الكي. دي. بي. KDP والبوك PUK، كليهما، في أربيل، قاتلين سبعة وستين شخصاً، حسب التقارير الإخبارية في ذلك الوقت. متوجسين مما قد يحصل يوم الانتخاب ومتخوفين من البقاء في سيارتنا في شوارع مهجورة، أوقفنا السيارة ومشينا في شوارع أربيل بُعَيْد الفجر.

قبل يوم أرسلتُ شيرين بحثاً عن عربة يجرها حمار نستأجرها للتنقل. بداية، رفض فريق كردستان، وهو الاسم الذي بدأنا نطلقه على أنفسنا، لم يصدق أنني كنت جادة. قلت لأعضاء الفريق: "تذكروا! لقد أوفدتني **الواشنطن بوست** لتغطية الانتخابات، وأنا عازمة على تغطيتها. إذا تعين علينا أن ننفذ المهمة بواسطة حمار فإننا سنفعل ذلك مستعينين بحمار." لم تُوَفَّق شيرين في العثور على عربة حمير في المدينة، فقطعت مسافة قصيرة خارج أربيل بالسيارة إلى أن وجدت مزارعاً. وقعت عينها على صبي، ربما في التاسعة أو العاشرة من العمر، يقود حماراً في طريق ترابية. لحقت شيرين بالصبي. أصيب الولد بالذعر من مرأى شيرين التي كانت امرأة عصرية استثنائية الجمال، ذات أحمر شفاه فاقع، وأهداب طويلة مقلوبة مظللة خلف نظارات شمسية داكنة من طراز جاكي. زعقت شيرين: "انتظر، أريد حمارك!" فيما انعطف الصبي مع الحمار بسرعة إلى زقاق ضيق لا تستطيع شيرين الدخول فيه بالسيارة. ظلت تتابعه بالنظر. كانت شيرين تعرف الأمكنة التي كنا نستطيع الذهاب إليها يوم الانتخاب إذا ما تعين علينا أن نفعل.

اصطف الناس أمام مراكز الاقتراع باكراً للإدلاء بأصواتهم. ومع التصويت كانوا يغمسون سباباتهم بالحبر الأرجواني، في إجراء استهدف الحيلولة دون التزوير ما لبث أن أصبح أقوى صور الانتخاب. تعبيراً عن الأمل راح العراقيون

المقترعون يبرزون سباباتهم الأرجوانية باعتزاز. في بغداد كان عمر قد أوفد فلاحاً إلى مركز الاقتراع القريب من منزله. كان قد اختار البقاء في البيت خلال الانتخاب خشية إثارة شكوك جيرانه حول مكان وجوده في أيام حظر التجول الثلاثة. قال فلاح لجيرانه إنه ترك العمل لدى **البوست**. وتفسيراً لغيابه اليومي زعم فلاح أنه كان يذهب إلى ورشة السيارات التي يملكها في بغداد. حاول الظهور بين الحين والآخر كي يصمد زعمه أمام الاختبار إذا ما حاول المتمردون أن يتأكدوا. كان المتمردون في الحي قد هددوا بمهاجمة مركز الاقتراع لمعاقبة كل من أدلى بصوته. كان شديد الخوف من مغادرة البيت، إلا أن عمر كان قد طلب منه تغطية مركز الاقتراع، فذهب. وحين وصل إلى المكان لم يجد سوى عدد من الصحفيين الأجانب، بمن فيهم فريق تلفزيوني ما لبث أن سدد فوهة آلة التصوير نحو فلاح. غير راغب في الكشف عن السبب الحقيقي لمجيئه إلى المركز الانتخابي، أبلغ فلاح الفريق التلفزيوني بأنه أراد أن يكون أول المقترعين، وبأنه مؤمن بالعراق الجديد. ثم تسلل فلاح إلى داخل مركز الاقتراع وأدلى بصوته على مضض. وبعد ذلك عاد إلى البيت وكشط الحبر عن سبابته بشفرة الحلاقة إلى أن آلمته وراحت تنزف. طوال النهار ظلت السي. إن. إن. تبث مقابلة فلاح وهو يعلن رغبته في أن يكون في طليعة العراقيين المقترعين. وأي متمرد فاتته رؤية فلاح على شاشة السي. إن. إن. توفرت له فرصة رؤيته في مشهد انتخابي بثه التلفزيون العراقي أياماً بعد الانتخاب قال لي فلاح مكرراً قصته: "أنا ميت حتماً."

علقت وأنا أربت على يده: "حسناً، أنت كنت تعرف ذلك سلفاً!"

لا أحد عبر لي عن مثل هذه المخاوف من الانتقام في كردستان. نسبة المقترعين كانت من بين الأعلى في سائر أرجاء العراق. ولدى الكشف عن حقائق فرز الأصوات بعد أيام، تبين أن المشاركة في كردستان تراوحت بين 82 و92 بالمئة. أما المشاركة الإجمالية في العراق فبلغت 58 بالمئة، أو 8.55 مليوناً من

أصل الـ 14.66 مليوناً من أصحاب حق الاقتراع المسجلين. في بعض أجزاء العراق، بما فيها محافظة الأنبار الغربية الشاملة للفلوجة، لم يذهب إلى صناديق الاقتراع سوى 2 بالمئة من الأهالي. ونتيجة للمشاركة الكثيفة في كردستان، تمكن الأكراد من الفوز بـ 25 بالمئة من مقاعد البرلمان الوطني، مما عزز دورهم في التأسيس لمستقبل العراق.

لم تكن لدينا أي أرقام يوم الانتخاب، غير أن البروز القوي للأكراد كان واضحاً. ثمة أشخاص انتظروا في الصف مدة ساعتين كاملتين ليدلوا بأصواتهم. وبعد الاطمئنان إلى حسن سير عمليات الاقتراع في أربيل، انطلق فريق كردستان بالسيارة للعثور على الحمار الذي كانت شيرين قد حددت مكانه قبل يوم. عثرنا على الصبي وحماره في قرية قذرة، غير مرصوفة خارج أربيل مباشرة. سألنا أم الصبي عن إمكانية استئجار الحمار للذهاب إلى مركز الاقتراع في إحدى القرى القريبة. قالت المرأة وهي تبتسم: "خذوه! غير أنكم لن تكونوا بحاجة إليه. الجميع يتحركون بالسيارات."

طالما قطعنا هذه المسافة كلها، نستطيع، أقله، التقاط صورة للذكرى. أمسك عمر الثاني بالحمار لأمتطيه. شيرين وساروك صرخا مطالبين بالظهور في الصورة. **لقطة**. حصلنا على ما يذكرنا بيوم الانتخاب. سألتِ المرأةُ عن مدى استعدادنا لأخذ صورة لها مع صغارها. نحو عشرين طفلاً - من الأقرباء والجيران - احتشدوا حولها. ومع أنها لم تطلب نسخة عن الصورة فإننا طبعنا واحدة لها في اليوم التالي، وبعد مغادرتي لأربيل أوصلَتْها شيرين إليها.

زرنا ما يزيد على عشرة مراكز اقتراع في ذلك اليوم، غير أننا قررنا أن نضيف مركزاً آخر. وصلنا إلى قرية زراعية صغيرة على مسافة بضعة أميال. لدى السعي إلى قصة مثيرة، يبحث المراسلون عن عناوين - عن تلك اللحظة أو اللقطة التي ستجمد جوهر اللحظة وستجذب القارئ إلى القصة. اهتديت أنا

إلى عنواني في مؤخرة شاحنة بيك آب حيث كانت عظيمة مصطفى مع خمسة من قريباتها محشورات. كانت مصطفى ترتدي ثوباً مخملياً آخر وتلف رأسها بوشاح داكن اللون أكثر شيوعاً في القرى. كانت النسوة قد انطلقن فجراً للإدلاء بأصواتهن في مكان قريب من منازلهن، غير أن صناديق الاقتراع كانت قد باتت ملأى. أخيراً حطت النساء رحالهن في هذه القرية الزراعية الصغيرة، بعد تسع ساعات من انطلاقهن. دليل قاطع على مدى حرصهن الشديد على التصويت. تذكرت نسبة المشاركة والانتخابات بالولايات المتحدة ـ ما أقل الناس الذين يذهبون إلى مراكز الاقتراع على الرغم من أنهم أحرار أن يفعلوا. فكرت بجملة الأشياء التي يعدها الأمريكيون مسلمات، جملة الأشياء التي كنت أنا شخصياً قد وضعتها في خانة المسلمات. بصرف النظر عن أي أشياء أخرى قمت بتغطيتها في العراق، كنت واثقة من أن أي قصة أخرى لن تؤثر فيّ مثلما فعلت هذه. كم تمنيت أن تكون لمى على قيد الحياة لتشاطرني هذا الشعور!

عدت إلى بغداد براً، بالسيارة. كنت متلهفة للعودة ولم أكن مستعدة لانتظار إحدى الرحلات الجوية، فقررت، مع عمر الثاني، المخاطرة. رسمنا خطة العودة. كانت زوج فلاح من كركوك ولم تكن قد رأت أمها منذ أكثر من سنة. وهكذا فإن فلاحاً أوصل زوجه وإحدى بناته إلى كركوك من بغداد لزيارة يوم واحد. رئيس الأمن مهند ذهب معهم. عمر الثاني وأنا التقيناهم في كركوك القريبة من السليمانية بالسيارة. كنا قد ذهبنا إلى هناك ـ إلى السليمانية ـ لإيصال ساروك إلى بيته ولزيارة عائلته. ركبت مع فلاح وأسرته في طريق العودة إلى بغداد. أما عمر الثاني ومهند فقد تبعانا في السيارة المصفحة. كلما وصلنا إلى إحدى نقاط التفتيش، كان فلاح يصرخ: "ناموا!" فنسارع إلى التظاهر بالنعاس، آخذين غفوة، مقدرين أن الشرطة لن تعير اهتماماً كبيراً بنساء نائمات. كررنا هذا المسلك على امتداد ساعات الرحلة الأربع إلى بغداد، التي وصلناها آمنين. بدا فلاح عائداً إلى حالته الثابتة مرة أخرى بعد أن قرر الاستسلام الكامل لقَدَره.

جميع العاملين في مكتب **البوست** البغدادي كانوا قد تعبوا في الانتخاب، وإن كان بسام وعمر قد استعدا للأسوأ. وفي الليلة التي سبقت الانتخاب تقاسما زجاجة نبيذ في غرفة الفندق القريبة من المكتب وودع كل منهما الآخر. في الحقيقة، كان العنف في طول العراق وعرضه أقل مما كان متوقعاً. ومع أن المتمردين شنوا 260 هجوماً على أهداف من أنواع مختلفة - بما فيها 109 مكاتب اقتراع - فإن الإصابات كانت قليلة نسبياً: 45 قتيلاً و100 جريح. لم يكن أكثر الأيام دموية في العراق. ربما كان ساروك على صواب فيما يخص مستقبل العراق، فيما يخص احتمال حلول السلام. كانت رسالة إلكترونية مؤثرة منه تنتظرني عندما وصلت إلى المكتب:

مرحباً، صديقتي الطيبة، كيف حالك؟ أدعو لك بالصحة والسلامة. أفتقدك كثيراً، كثيراً جداً. في زحمة دوي الانفجارات، الدم، صرخات الألم، عدم الثقة وأشكال الغدر والخيانة التي تتزاحم في هذا البلد، بدت شجاعتك وحضورك العذب لإلقاء شيء من الضوء على الحقيقة أمراً سوريالياً، أمراً ينتمي إلى عالم الحلم والخيال. أو تعلمين؟ لقد كنتِ أنتِ الضوء! وصدقيني حين أقول لك إن هذا الضوء قد عزز من تفاؤلي أكثر فأكثر...

في الحقيقة، كان ساروك قد شد من أزري. أدى تفاؤله الراسخ، إيمانه العميق بالمستقبل، إخلاصه لوطنه في مواجهة العنف، إلى تعميق التزامي بقصة العراق، بملحمة العراق. كنت قد وعدت أهلي بأنني كنت سأعود إلى الولايات المتحدة بعد الانتخاب. ولكن هل كان بوسعي أن أرحل الآن؟ تعين علي أن أبقى، لملامسة سحابة الأمل هذه المحلِّقة فوق العراق، فوقي أنا.

عندما كنا، جاكي وأنا، صغيرتين، كثيراً ما كنا نمضي الليالي في بيت جدتنا أم أبينا، خصوصاً بعد موت زوجها وباتت بحاجة إلى العشرة. قبل الذهاب إلى النوم كانت تتسلل إلى غرفتنا وتوصل غطاءينا إلى ذقنينا، ثم تطالبنا بإصرار: "كونا حريصتين!" فنردد نحن بالمثل: "أنت أيضاً كوني حريصة يا جدة!" تومئ برأسها وتقول: "موافقة إذن. ولكن كونا حريصتين، أنتما!" ما أكثر ما كنا، أختي وأنا، نقلّب، ونحن ممدَّدّتان في سريرينا في الظلام، كلمات الجدة. مم الحرص؟ لم نكن بعد قد عرفنا حتى معنى الخوف، أما بعد التنبيه فكنا نصبح، متوجستين إزاء نوعية المخاطر الحافزة لتحذير جدتنا، خائفتين من كل شيء: من الاختناق في النوم، من لصوص قابعين خارج النافذة، من الطقطقات الشبحية لألواح خشب الأرضية. أحياناً كان إيداع جسدينا الهشين في بنك النوم يستغرق عدداً من الساعات.

حين غادرتْ جاكي إلى العراق، ما لبث رعبي الطفولي أن عاد تسللاً. تذكرته فوراً: خوف بالغ الضخامة أكبر من أن يأخذ شكله الخاص وملتهم لكل شيء. لأنني كنت أحاول أن أبقى قوية دعماً لجاكي، إخفاءً لكوابيسي عنها، لم أخبرها قط. غير أنها باتت تعرف الحقيقة. قالت لي ذات يوم: "اسمعي، أعدك سأكون حريصة."

وقد كانت بالفعل. إلى أن بدأتْ فراخ السمك تنفق وأصيبت هي بالمرض. ذات بعد ظهر، وأنا في الحديقة مع آيدان، اتصلتْ. قالت بصوت مخنوق وهي تلهث: "اعط الهاتف لآيدان!" لم يكن الصوت واضحاً، تسلقنا، آيدان وأنا، أجمة الرياضة. قبل قطع الاتصال قال آيدان: "وداعاً، خالة جاكي!" أمسكت بيد آيدان انقضاضاً وهرعت، جارة إياه، إلى البيت. لم يكن ثمة أي شيء كنت أستطيع أن أفعله بعد العودة إلى البيت سوى انتظار رنين جرس الهاتف من جديد. وقد فعل. ولكن بعد يومين اثنين بَدَتْ أسوأ من أي

وقت مضى، مقطوعة النفس ومهلوسة. عرفت أن الوضع بالغ الخطورة والجدية، طلبت منها، بإلحاح، أن تراجع أحد الأطباء العسكريين. توسلت إليها: "لا تستطيعين الاستمرار هكذا!"فجأة احتد صوتها: "لست عائدة إليكم!"

لم أكن أطلب منها أن تعود إلينا. أردت فقط ألا تموت في العراق. أنهيت المخابرة وجلست إلى مكتب زوجي، محاولة تصور ما يمكن فعله. كمبيوتر زوجي كان أمامي، نقرت أزرار حسابي الإلكتروني. حومت أصابعي فوق الأزرار، محنية تحت ثقل خطورة ما كنتُ موشكة على فعله. تذكرت كم كانت جاكي قد غضبت وأحست بالمهانة حين أقدمت أمنا المرعوبة على الاتصال بالمكتب الخارجي في وقت سابق من العام؛ وكنت أنا قد توليت أمر المواساة والتهدئة قائلة: "معك حق! كيف استطاعت أن تفعل ذلك!؟"

كتبت مخاطبة مساعدة مسؤول مكتب الشؤون الخارجية في البوست: "إميلي العزيزة، جاكي مريضة جداً. لن تغادر العراق إلى أن يتم الإيعاز إليها بأن تفعل. تصرفي بهذه المعلومة كما تشائين. ولكن إياك أن تخبري جاكي، أرجوك!"

أوقفت الكمبيوتر عن العمل وتوجهت إلى شقة جاكي لري النباتات، عاجزة عن نفض الشعور بالذنب. لم يكْفِ أنني ما عدت واثقة بها، بل وقد أصبحت عديمة الثقة بنفسي. هل أصابني مرض جنون الخوف؟

وجودي في شقة أختي أشعرني بأن وضعي أفضل، غير أني بقيت أتحرك مثل شبح. جلست على أريكتها وحدقت في شاشة التلفاز البلهاء. فتحت البراد وأغلقته. تمددتُ فوق منحنى جسدها على السرير، مراقبة شفرات مروحة السقف الدائرة بسرعة بخفقات منحرفة. في خزانتها داعبت بأصابعي قمصانها، العادية والقطنية الضيقة، أحذيتها، منحنية

إلى داخل الخزانة التماساً لاستنشاق عَبَقها المألوف طويلاً وبعمق ليلة موت أبي، جاءت جدتي لتودع آخر أبنائها الثلاثة. تركت عكازتها عند باب غرفة نومه ووقفت بجانبه. قالت له: "أحبك يا ولدي. كن حريصاً!" وعدها بأن يفعل. وبعد سويعات، مات.

obeikandl.com